أسس القراءة السيميولوجية الهرمينوطيقية
في
مقاربة النص الديني

الأستاذة الدكتورة: شهناز سمية بن الموفق
مخبر الدراسات العقدية ومقارنة الأديان
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميَّة

مقدمة

من أهم المناهج النقدية المعاصرة التي وظفت لمقاربة جميع الخطابات النصية، ورصد كل الأنشطة البشرية بالتفكيك والتركيب، والتحليل والتأويل، بغية البحث عن آليات إنتاج المعنى، وكيفية إفراز الدلالة عبر مساءلة أشكال المضامين، مع سبر أغوار البنيات العميقة دلالة ومنطقا، من أجل فهم تعدد البنى النصية وتفسيرها على مستوى البنية السطحية تركيبا وخطابا. وتبحث السيميولوجيا في أنظمة العلامات سواء أكانت لغوية أم أيقونية أم حركية، وفي كتاب دوسوسير: (المحاضرات في اللسانيات العامة) قنن لعلم لغوي جديد هو اللسانيات–الذي هو متضمن للسيميولوجيا– الذي أقامه على أنقاض مرحلة الفيلولوجيا "فقه اللغة" ومرحلة فلسفة اللغة. والسيميوطيقا عبارة عن لعبة التفكيك والتركيب، وتحديد البنيات العميقة وراء البنيات السطحية المتجلية فونولوجيا وصرفيا ودلاليا

وتركيبيا...والسيميوطيقا لا يهمها ما يقول النص ولا من قاله بل يهمها كيف قال النص ما قاله، فهي دراسة شكلانية للمضمون، تستنطق الشكل تفكيكا، بناء، تحليلا، تأويلا[1]

الفيلولوجيا أو فقه اللغة المقارن أو التحليل التاريخي المقارن للغة: فهو المنهج الذي اعتمد عليه لدراسة النصوص المكتوبة، ومحاولة اكتشاف عناصر التشابه بين لغة و لغة أخرى، و من ثم دراسة و ملاحظة التغيرات التي تطرأ علي اللغة ،و مقارنة التغيرات التاريخية بين اللغات المتشابهة[2]، فالمستشرقون المتخصصون في "فقه اللغة" يرون أن كلمة "قرآن" ذات أصل سرياني أو عبري، يقول" **أركون**": (انظر الآية التوراتية التي استعارها القرآن كما هي: (وعلم آدم الأسماء كلها) والتي دعمت على المستوى اللغوي من قبل كل الفللوجيا الكلاسيكية)، وقد تم تخليد فلسفة اللغة هذه من قبل التعاليم اللاهوتية، وانتهى بها الأمر إلى السيطرة على الساحة، وقد أدت هذه الفلسفة اللغوية بأنواع الوحي المتتالية: (من يهودية ومسيحية وإسلامية) إلى جعلها اسمية، جوهرانية، ثبوتية، جامدة داخل الصياغات اللغوية الخاصة بنظام العلامات الذي يشترط الآلية اللفظية والمعنوية لكل لغة (سامية :عبرية، آرامية، عربي)[3]. أو هو العلم الذي اتخذ من تأويل النصوص الأدبية موضوعاً له واستعمل الهرمنيوطيقا لتحقيق هذه الغاية هو الفيلولوجيا، أو علم فقه اللغة. وبين هارالد باتزار كيف أن الفيلولوجيا التي بدأت باستعمال علم التاريخ لغرض التأويل أصبحت تدريجياً تُستعمل من طرف التاريخ، أو أنها هي نفسها صارت فرعاً من التاريخ تعاملُ النصوصَ مجرد "شهود" أو "مصادر " من أجل رسم صورة تاريخية عبر إعادة بناء الماضي .وهذا بالتأكيد تطور يمكن فهمه مادامت هناك أيضاً، وبشكل طبيعي، دائرة بين المعرفة الفيلولوجية والمعرفة التاريخية. ولكن كانت النتيجة أن الفيلولوجيا فقدت

[1] –جميل حمداوي، مدخل إلى السيميوطيقا السردية، مكتبة المثقف، المغرب، ط1، سنة 2015م، ص7–12

[2] –خنوس نور الدين، الخلفية الاستشراقية لمنهج النقد التاريخي للنص الديني عند محمد أركون، مجلة العلوم الإنسانية والإجتماعية، تا ع للمقر الجامعي ورقلة، العدد 21، بتاريخ ديسمبر 2015م، ص156–157

[3] –محمد أركون، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ترجمة وتعليق هاشم صالح، المؤسسة الوطنية للكتاب–لافوميك، الجزائر، سنة 1993م، ص73–76

موضوعها الحقيقي في تأويل النصوص لصالح فهم هذه النصوص. والسبب هو أن مهمة الفهم لم تُفهم على نحو عميق كفاية[1]

المنهج التاريخي: في نقد النصوص أو ما يسميها أركون التاريخية[2] على طريقة بوركهارت"أصبحنا لا نفهم أيا من شؤون الماضي،كلمة ، فكرة ،حكم ، سلوك إلا إذا عدنا بذهننا إلى ظروف نشأته" ، فيتخذ من هذا المنهج دراسة الحوادث التاريخية والاجتماعية والسياسية كوسيلة لتفسير النص و تأويله، و تعليل ظواهره وخصائصه[3]

الهرمنيوطيقا: تأويل herméneutique[4] تفسير نصوص فلسفية أو دينية، وبنحو خاص الكتاب (شرح مقدس) تقال هذه الكلمة على ما هو رمزي[5]، ويشير الفعل hermeneuein أصلاً في اللغة الإغريقية إلى أبعاد أكثر عمومية من الاتصال اللغوي، مثل التعبير وترجمة اللغة، وهي أبعاد لم تعد مرتبطة باستخدامنا للـ" هرمنيوطيقا." إلا أن البعد التأويلي[6] هو أحد الأبعاد التي أشار إليها الفعل وهو المسؤول عن التطور الحديث الذي طرأ والذي قادنا إلى المعنى العالمي تقريباً

---

[1] –بولتمان، مسألة الهرمنيوطيقا، مجلة إسلامية معاصرة، السنة 18، العدد 59–60، صيف وخريف 2014م، مركز دراسات–بغداد، ص111

[2] – إن النظر للكتابات المقدسة من هذه الزاوية التاريخية والاجتماعية والأنثروبولوجية يعني بالطبع زعزعة كل التركيبات التقديسية والمتعالية للعقل اللاهوتي التقليدي، ولكن هذه العملية الكبرى من نزع غلافات التمويه والتهويل والرؤى الأسطورية عن ظاهرة الكتاب المقدس. تبدو اليوم حتمية لا مفر منها، فالأمر يتعلق بتحويل الأسطورة لنوع من المعرفة العقلانوية والتاريخوية والوضعوية (محمد أركون، الفكر الإسلامي، ص83–84)

[3] – خنوس نور الدين، الخلفية الاستشراقية لمنهج النقد التاريخي للنص الديني عند محمد أركون، ص157

[4] –**تأويل**: استنباط تأصيلي لغوي وعقيدي لنص، خصوصا لنص مرجعي التوراة (أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد1، ص384)

[5] –أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد 2، ص555

[6] –يعد تأويل النصوص الدينية–القرآن–من أهم آليات الخطاب الديني في طرح مفاهيمه وأفكاره وتصوراته. والمصدر الإلهي لتلك النصوص الدينية لا يلغي إطلاقا حقيقة كونها نصوصا لغوية بكل ما تعنيه اللغة من ارتباط بالزمان والمكان التاريخي والاجتماعي...فالنص القرآني يستمد خصائصه النصية المميزة له من حقائق بشرية دنيوية، اجتماعية ثقافية لغوية في المحل الأول. إن الكلام الإلهي المقدس لا يعنينا إلا منذ اللحظة التي تموضع فيها بشريا أي التي نطق به محمد باللغة العربية(نصر حامد أبو زيد، النص السلطة الحقيقة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضا، ط1، سنة 1995م، ص91–95)

للـ "هرمنيوطيقا" وهو :نظرية تفسير النص .يرتبط تطور النشاط الهرمنيوطيقي في الثقافات الغربية بشكل خاص في سعي كل من المسيحية واليهودية لإيجاد نماذج للتفسير تكون ملائمة للكتاب المقدس[1]، ونشأ هذا المنهج في بيئته الغربية ومدي تطوره وانتقاله من مجال النصوص المقدسة إلي النصوص الأدبية ودور المتلقي في ضوء هذا المنهج ، ثم انتقال المنهج إلي الثقافة العربية، وتبني بعض الدارسين العرب له مطبقين إياه علي النص القرآني[2] وما نتج عن ذلك من آثار في تأويل القرآن ، وتحريف دلالاته[3].

المنهج النفسي: نشأ المنهج في الغرب ويظهر اهتمام الدارسين والنقاد به، وتم تطبيقه علي المرضي النفسيين في بادئ الأمر ، ثم محاولة تطبيقه علي النص القرآني حيث تبني البعض هذا المنهج التحليلي في دراستهم للقرآن[4].

إشكالية النص الديني المقدس

أولا: أصل الكلمة ومعناها: كلمة "نص" اللاتينية "textus" آتية من الفعل "نص" "texère". ومعناه بالعربية "نسج" ولذلك فمعنى النص هو "النسيج" ، (فالنص نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض. هذه الخيوط تجمع عناصره المختلفة والمتباعدة في كل واحد هو ما نطلق عليه مصطلح

---

[1] –ويرنرج جينروند، تطور الهرمنيوطيقا اللاهوتية من البدايات إلى عصر التنوير، مجلة إسلامية معاصرة، السنة 18، العدد 59–60، صيف وخريف 2014م، مركز دراسات فلسفة الدين–بغداد، ص64

[2] –يقول **"نصر حامد أبو زيد"**: (لا يختلف منظور الاستشراق كثيرا–ترجمة جاك بيرك للقرآن للفرنسية– عن منظور علماء القرآن من حيث لأن كلا المنظورين يفترض أن القرآن نص موحد متجانسين وإذا كان علماء القرآن يسعون حثيثا لإثبات هذا التجانس عن طريق البحث عن الروابط والعلاقات، فإن جاك بيرك ينطلق من الافتراض الضمني نفسه حين يقف عند ما أسماه ظاهرة "انعدام التجانس" بين السور والآيات. والحقيقة أن القرآني منظومة من مجموعة من النصوص التي لا يمكن فهم أي منها إلا من خلال سياقه الخاص) (نصر حامد أبو زيد، النص السلطة الحقيقة، ص104)

[3] –بركات رياض محمدي، مناهج النقد الأدبي الحديث وإشكاليات تفسير القرآن، تحت إشراف عفت محمد الشرقاوي وعاطف جوده نصر، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه، جامعة عين شمس، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، سنة 2011م، ص12

[4] – بركات رياض محمدي، مناهج النقد الأدبي الحديث وإشكاليات تفسير القرآن، ص13

"نص")[1]. النص–عند هذه الهرمنيوطيقا–هو كل خطاب أثبتته الكتابة[2]. ويتمثل المعنى اللّغوي لمصطلح (النّص) : مطلق الملفوظ والمكتوب، فكلّ عبارة مأثورة أو مُنشأة هي نص. ومن اللّغويين من خصّصه فقال: (النّص هو الإسناد إلى الرّئيس الأكبر .والنّص :التّوقيف، والتّعيين على شيء ما)، ومنه قولهم: (لا اجتهاد مع النّص، وجمعه :نصوص، والنّص عند الأصوليين :الكتاب والسنة ... والنّص :ما لا يحتمل إلّا معنى واحدا، أو لا يحتمل التّأويل :منتهاه ومبلغ أقصاه .يقال بلغ الشّيء نصّه، وبلغنا من الأمر نصّه :شدّته)[3]. النص الأصلي في حالة التراث الإسلامي هو "القرآن الكريم" الذي يمثل الواقعة الأولى، والنصوص الثانوية هي نص السنة النبوية من حيث هي شروح للنص الأصلي[4]

ثانيا: مقتضيات مصطلح النص: تطورت النظرة إلى الوحي القرآني بالانتقال من تلك النظرة التي تكتفي بتقديسه وتبجيله والنظر إليه كموضوع من طبيعة خاصة يختلف تماما عن الظواهر الأخرى إنسانية واجتماعية وطبيعية، وعن الكتب السماوية الأخرى والتي ترتب عنها النظر إلى النص القرآني في ذاته وفق تميزه المطلق عن النصوص الأدبية والفلسفية والعلمية...ويمكن أن يقرأ بنفس المناهج المعتمدة في قراءتها، كالهرمنيوطيقا والسيميولوجيا والتفكيك... وغيرها من المناهج المعاصرة التي لا تستطيع التعامل مع المفاهيم الكلاسيكية كالغيب، التعالي، المقدس، المطلق[5]، والخطاب–النص–الديني خطاب لغوي قابل للنقد (نظرية موت المؤلف/ عزل النص) إذ يقتضي هذا المنهج إخضاع النصوص

---

[1] –الصبيحي محمد الأخضر، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، الدار العربية للعلوم، لبنان، ط1، ص19

[2] –محمد عمارة، قراءة النص الديني بين التأويل الغربي والتأويل الإسلامي، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، أكتوبر 2006م، ص15

[3] –وليد بركاني، قراءة النص الديني بين القداسة والمناهج الحديثة، مجلة التواصل في اللغات والآداب، عدد 49، بتاريخ مارس 2017م، ص35

[4] –نصر حامد أبو زيد، التفكير في زمن التكفير ضد الجهل والزيف والخرافة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، سنة 1995م، ص134-135

[5] –حمادي هواري، النص القرآني وآليات الفهم المعاصر، تحت إشراف بومدين بوزيد، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة، جامعة وهران، كلية العلوم الاجتماعية، السنة 2012-2013م، ص29

الشرعية لآليات التفكيك والنظريات الألسنية الحديثة، ويرى **"علي حرب"**[1] أن كينونة النص تقضي بالنظر إليه من دون إحالته لا إلى مؤلفه ولا إلى الواقع الخارجي. وتتمثل إشكالية العلاقة بين النص المعطى ولغته، إذ ليس لـ"قصد "المؤلف، أو النص، مكان في "النظرية التأويلية "الجديدة، باعتبار أن النصوص لا تحمل أي معنى إلا ذلك الذي يصنعه القارئ ويشكله، مما يؤدي إلى "فوضى التفسير " و"لا نهائية المعنى "و"نسف محتوى النص" و"إبطال مقصوده"؛ في ظل الغيبات الثلاث التي تقوم عليها"التأويلية الحديثة" (غيبة المؤلف، وغيبة المرجعية، وغيبة القصدية)، وبذلك وحده يستأثر الحداثيون بتأويل النص الديني؛ قرآنًا وسنة، ويتلاعبون بفهمه وتفسيره ومدلوله، في" باطنية" مسرفة لا ترى في" ظواهر "النصوص أكثر من رموز ومؤشرات ومدلولات كوامن بواطن، هي مركز الثقل في النص، وبدل أن يكون الهوى تبعًا لمعطيات النص، يكون هو تبعًا لأهوائنا[2]

وحيث كثرت الدعوات إلى قراءة جديدة للنص الديني،فالنقد الإسلامي له تصوُّرُه الخاص عن كل قضيَّة من القضايا مُنطلِقا من العقيدة الإسلامية. والنقد الإسلامي المنشود ينبغي أن يعيدَ تفكيك عناصر المناهج الغربية التي يتعامل معها، وهذه المناهج – على ارتباطها بالخلفيَّات الأيديولوجيَّة – يُمكن تفكيكُها، وإعادة صياغتها ليستفاد مما هو حيادِي منها، ويُعَاد تركيب بعض العناصر تركيبًا تصوغه الرُّؤية الإسلاميَّة... يقول **عماد الدين خليل:** (النقد الإسلامي نقد شمولي مُتوازن، شأْنه في ذلك شأن سائر الفعاليات التي تتحرَّك في إطار الإسلام؛ لأنها تستمدّ من رؤيته الشاملة المتوازنة مقوِّماتها وملامحها، إنَّ هذه الرؤية ترفض أشدَّ الرفْض تلك الخطيئة المنهجيَّة التي مارسَها الغربيون كثيرا، واستمرؤوها طويلا، النظرة الأحادية الجانب، التشبُّث بوجهة النظر المحدَّدة، رغم أنها تصدر

---

[1] –علي حرب أكثر الحداثيين صراحة وضبطا لمواقفه الأيديولوجية، فيرى بفك الوصاية على العقول والنصوص بعقلية الألوهية والقداسة. والتعامل مع العقائد والمذاهب على اختلاف المرجعيات وتعددها، لا كحقائق مطلقة أو سجون عقائدية بل كخبرات وتجارب تشكل أدوات للنظر والتفكر. التصورات والقناعات الدينية والعقلية هي من حيث علاقتها بالواقع مجرد وجهات النظر أو مناهج للعمل. كسر المنهج الأحادي في التفسير والتعبير. الحلول القصوى والنهائية وهم. النص ينفتح على كل قراءة ويقبل أي تفسير. ليس لأحد الإدعاء بصفة إلهية أو رسولية أو تجسيد مثالات الحرية والعدالة والمساواة والتقدم.(علي حرب، هكذا أقرأ ما بعد التفكيك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط1، سنة2005م، ص297–300)

[2] –أنس سليمان المصري، المنطلقات الفكرية والعقدية لدى الحداثيين للطعن في مصادر الدين، مجلة دراسات، علوم الشريعة والقانون، المجلد 42، العدد1، سنة 2015م، ص87–88

عن زاوية ضيِّقة، بينما هنالك عشرات الزوايا الأخرى؛ لالتقاط صورة أقرب إلى الواقع".إن منهج النقد الإسلامي يصحِّح كثيرًا من المفاهيم المغلوطة، ولأنَّ المنهج النقدي يصْدرُ عن تصوُّرات فلسفيَّة وفكريَّة يكون فيها هو تصحيحًا في فلسفة الحياة، وفي نظرة صاحبه إلى هذه الحياة)[1] ولمعرفة الرأي الذي يتَّفق مع الشرع والعقل، والواقع واللغة، عوض الاكتفاء برمي أصحابها بالضلال والكفر، فذلك لا يجدي شيئًا، خصوصًا أن كثيرًا من النُّخَب المثقفة والجاهلة بأمور الوحي وبأمور دينها – يستهويها مثل هذه الأُطروحات[2].

وقدحاولنا الإجابة على هذا السؤال في محورين: أحدهما: نظري، والآخر: تطبيقي.

محاور نظرية:

المحور الأول: محور مهتم بتحديد المفاهيم والمصطلحات[3].

• في المفاهيم: ما النص؟ ما القراءة المعاصرة أو الحديثة؟ ما الخطاب الديني؟ وهل هنالك فرق بينهما عند المفكرين؟

• في المصطلح: ما التفسير؟ ما التأويل؟

المحور الثاني: محور مهتم بظاهرة القراءة المعاصرة للنص الشرعي.

• بداية ظاهرة القراءة المعاصرة والتسلسل التاريخي لها؟ وما نتَج من التأويل عند المسلمين، و(الهرمينوطيقا) في الفكر الغربي.

• بعض المناهج الحديثة في قراءة النص الشرعي.

• أُسس القراءة الهرمينوطيقية موجزة.

محور تطبيقي:

• ذكر أنموذج على هذه المناهج المعاصرة (الهرمينوطيقا) في قراءة النص الشرعي.

ظهرت كتابات كثيرة في مسألة النص الشرعي وكيفية التعامل معه، رأى أصحابهاأن العقل العربي لا بد أن يتطور، وهذا التطور يقف دونه حواجز كثيرة، على رأسها النص، فكان لا بد من

---

[1] – وليد قصاب، النقد الإسلامي وموقفه من المناهج الغربية، مقالة بموقع الألوكة بتاريخ 2011/8/9م، على الرابط التالي /https://www.alukah.net/literature_language/0/33833

[2] "تأصيل النص لدى لوسيان غولدمان"؛ محمد نديم، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط (1)، 1997م ص48.

[3] – "الخطاب الفلسفي المعاصر من العام إلى الأعم"؛ السيد محمد، دار قباء – القاهرة – ط (1)، 2000م ص78.

إخضاع النص لعملية التطوير بتأويله؛ليتكيَّف مع معطيات الواقع الجديدة، ويصبح نصًّا متفاعلاً مع الصيرورةالتاريخية، وليس نصًّا جامدًا متعاليًا على الواقع، أو بتجاوز النص وهدْمه عبر التشكيك فيه؛ إما ثبوتًا، أو دلالةً.

فما هو هذا النص الشرعي؟ وما المقصود به هنا؟

النص: تستعمل كلمة "نص" بمعنيين:

1- اللفظ الذي لا يحتمل إلا معنًى واحدًا، بمعنى أنه لا يدل إلا على معنًى واحد.

اللفظ مطلقًا؛ أي: بما يحمل من معنًى واحد أو أكثر من واحد.

والمراد به هنا عند الإضافة: آيات القرآن الكريم وروايات السنة الشريفة، ولا يتعدَّى منها إلى سواهما من أقوال وفتاوى الفقهاء، إلابشيء من التسامح في التعبير أو الاتساع في الكلام.

ونخلص إذًا إلى أن النص الشرعي: هو الكلام الصادر من المشرع الإسلامي لبيان التشريع [1].

هذا الكلام الصادر طرَأ عليه تأويل بهدف الوصول إلى معانٍ وقراءات للنص، لم تظفر بها قراءات سابقة، فظهرت مناهج نقدية حديثة في النهضة الفكرية الحديثة حاولت ذلك؛ مما جعله نصًّا مفتوحًا على جميع التأويلات، وتتعدَّد تأويلاته بتعدُّد قراءاته، فما كان مفهومًا من النص الشرعي في القرن الأول على وجه، فلا مانع من إعادة تأويله حسب مقتضيات البيئة الثقافية ومتغيرات الحضارة، وعلى ضوء هذا بدأ التشريع لدين جديد في العقائد والأحكام، وإلغاء الفهم السائد للنصوص الدينية.

فوقَع النص هنا بين تأويلين:

أحدهما عند علماء الأصول والتفسير، والآخر لدى الحداثيين المعاصرين وما يريدونه منه؛ ففي حين يعني لدى الأوائل صرف الكلام عن ظاهره إلى معنًى يحتمله.

فإنه لدى الحداثيين العرب ينحو منحًى عميقًا، يطال النص بالكلية، ويصرفه عن وجهته السياسية والتشريعية إلى الوجهة (الروحية) أحيانًا، ويجعل العقل المعاصر حكمًا عليه أحيانًا أخرى[2].

---

[1] الخطاب الغربي المعاصر – قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة"؛ فادي إسماعيل، تاريخ النشر بدون ص99-103.

[2] "ظاهرة التأويل الحديثة في الفكر العربي المعاصر – دراسة نقدية إسلامية"، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، ط (1)، 1431هـ ص55-57.

فيتبيَّن لنا هنا الفرق بين النص والخطاب الديني في الفكر المعاصر، فالنص هو السلطة الخبرية التي تُلزم الناس أن يرجعوا إليها، وفي كثير منالأحيان يقصر على القرآن، وأما الخطاب الديني، فهو طرق ووسائل تبليغ المنظومة الدينية، وكيفية التعبير عنها.

فالقراءة المعاصرة إذًا هي:

استخدام نظريات حديثة جديدة في قراءة النص الشرعي، سُمِّيت بذلك؛ تمهيدًا لأن يكون في كل عصر قراءة جديدة للنص الشرعي.

التأويل في الفكر الغربي ارتبط في حِقبة زمنية بالكتاب المقدس، فلما انفرط عقد الكتاب المقدس، انفرَط عقد التأويل، فأصبح لونًا من التسلية أوالتفكير الذي لا يرتبط بالنص، كل فكرة جديدة أصبح من الممكن ربطها بالكتاب المقدس مهما كانتمخالفة لتعاليمه؛ وذلك حتى لا تغضب الكنيسة، وثانيًا: حتى تروج دينيًّا وتلقى قبولاً ما، وطبعًا لم يكن ذلك موفقًّا دائمًا، فكان أغلب المؤولين حارَبتهم الكنيسة تحت اسم (الهرطقة)، فالهرمينوطيقا هيالتأويل المنفلت، والذي اعتبرته الكنيسة هرطقة وتجديفًا.

وإذا أردنا البحث بدقة عن بداية هذه الظاهرة، يتحتم علينا العودة إلى لحظة الاحتكاك الثقافي العربي بالحضارة الغربية، من خلال ثلاث مراحل:

الأولى: في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ومع احتدام التنافس بين الحضارة العربية والغربية، بدأت محاولات العلماء والمفكرين لإعادة قراءة التراث العربي الإسلامي، وطرْح مشروعات فكرية للنهوض بالأمة، والانفكاك من قيد الحضارة الغربية، فكانت أطروحات محمد عبده وجمال الدين الأفغاني، ورفاعة الطهطاوي، ومحاولاتهم التوفيق بين النص الشرعي وبعض المنتجات الفكرية الغربية.

الثانية: في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين بدأت موجة أخرى من المشروعات الموجهة للتعامل مع النص الشرعي، ومع هذه الموجة ظهرت منهجية قراءة النص الشرعي بواسطة المناهج الحديثة، وخاصة قراءة القصص في القرآن الكريم؛ كما في أطروحات طه حسين وأمين الخولي، ومحمد أحمد خلف الله، مستخدمين في قراءتهم لتلك القَصص آليات العقل الإنساني التاريخي.

الثالثة: في أواخر الستينيات وبعد النكسة العربية بدأت هذه المرحلة، وقد اتَّجهت معها الجمهرة الكثيرة من المثقفين العرب إلى إعادة قراءة التراث؛ مما شكَّل ما يشبه الظاهرة، هذه الظاهرة تتكون من عدة تيارات:

• منها ما كانت قراءته على ضفاف النص الديني، ولم تتعامل مع النص الديني مباشرة؛ كالجابري والعروي، وحسين مروة وجورج طرابيشي.

• ومنها تيارات أخرى كان مجال قراءتها النصوص الدينية نفسها، وهي على قسمين:

1- ما كانت قراءته ضمن المنهج الإسلامي المعروف اعتمادًا على التأويل؛ كجمال البنا، ومحمد العشماوي.

2- ما كانت قراءتهم تستمد آلياتها من خارج النطاق الإسلامي للاجتهاد، وذلك في الاعتماد على مناهج حديثة في قراءتها للنص، ومنهم محمد أركون – عبدالمجيد الشرقي – حسن حنفي – نصر حامد أبو زيد – الطيب التيزيني.

إذًا في الأولى توفيقية اعترَفت بمنجزات الحضارة الغربية إلى جانب اعترافها بالنص، والذي استوجب إنتاج منهج تأويلي يُطمئِن النفس؛ لتخرج من عقدة التخلف أمام الحضارة الغربية، ثم ظهر بعد ذلك مرحلة استخدام منهجيات ونظريات حديثة في التعامل مع النص.

من أهمها:

المنهج التاريخي: والذي ربط فَهْم النص بزمن تاريخي غير ممتد، شكَّلته الظروف الخاصة المحيطة بالنص، ويرتبط هذا المنهج بعدد من المدارس الفلسفية؛ كالوجودية، والماركسية، وحركة اللسانيات الحديثة.

وقد تفرَّع عن هذا المنهج مفاهيم أخرى، من أهمها: نظرية (الأنسنة)، والتي تجعل الإنسان محورًا لتفسير الكون بأسره، وتؤكد على إنكار أي معرفة من خارج الإنسان كالدين أو الوحي، فالوحي عندما يراد فَهْمه، لا بد أن ينتقل من الوضع الإلهي إلى الوضع الإنساني، كما تفرع عنه كذلك نظرية النسبية، فالنصوص وإن كانت ثابتة في منطوقها، إلا أنها متحركة في المفهوم تبعًا لتغيُّر الزمان والمكان، ينتهي هذا المنهج التاريخي وما تفرع عنه من نظريات إلى التعدد غير المحدود في تأويلات النص[1].

[1] "الفكر العربي الحديث والمعاصر" ؛ ت: سليمان ربضي، دائرة الفلسفة والدراسات الثقافية، فلسطسن، بير زيت، 2000م ص127.

المنهج المقاصدي: بحيث يكون قصد صاحب الخطاب الديني هو السلطة المفروضة، ولا يمكن معرفة المقصد من الخطاب إلا بوجود صاحب الخطاب، أما إذا لم يوجد، فعلينا أن نبحث عن مقاصده من خلال تأويل النص الديني بهدف الوصول لقصد صاحب الخطاب، وفقًا لظروف معينة أنتج فيها الخطاب الديني[1].

بعبارة أخرى، إن الفارق الزمني بين صدور النص وتلقِّيه المعاصر، لم يعرِّض النص لنقصان في حقيقته أو تعطيل في وظيفته، بل أحدث تحوُّلاً في وضعية النص ونظام علاقاته ودلالته مع متلقيه الجدد، الأمر الذي جعله نصًّا مفتوحًا باستمرار على معان متعددة.

المنهج البنيوي: ظهر هذا المنهج لقراءة النصوص في منتصف القرن العشرين، ويقوم على حصْر القيمة في النص ذاته بما هو معطى من دلائل، ومن ثَمَّ يدرس هذا النص، ولا يهم مؤلفه وكاتبه ولا مقاصده ولا أوضاعه التي أنتج فيها خطابه، المهم هنا النص الموجود، ندرسه من خلال العلاقات القائمة بين أجزائه وتراكيبه وجُمله[2].

المنهج التفكيكي: الذي يقوم على تفكيك النصوتحليله إلى فقرات متعددة، ولا يقوم بهذا التفكيك إلا القارئ، فهو يفك هذا النص، ويعيد بناءه وَفْق آليات تفكيره، فالقارئ يوظف النص الديني حسب معطياته وفَهْمه، والنص الديني الواحد له الكثير من القُراء، وبالتالي تتعدد القراءات وتتنوَّع، وتنتج تأويلات متعددة.

المناهج التي وقعت في التأويل للنصوص المقدسة مناهج كثيرة ومتعددة، لكني حاولت هنا الإشارة إلى الأبرز منها، وكذلك لا بد من التنبيه إلى أن هذه (الهرمينوطيقا) أو القراءة التأويلية، تقوم على أسس معينة فلسفية غربية، انعكست على قراءة النص الشرعي عند مثقفي العرب، وهي إيجازًا: انعدام البراءة في القراءة – موت المؤلف – خرافة القصدية – لانهائية المعنى – التناص – الفراغات – الرمزية.

من أهم القراءات التي طُرِحت لقراءة النص الديني في المحيط الثقافي العربي:

---

[1] القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير؛ د.محمد كالو، دار اليمان، سوريا، ط (1)، 1430هـ ص89.

[2] قراءة علمية للقراءات المعاصرة؛ د.شوقي أبو خليل، دار الفكر، سوريا، ط (1) 1411هـ ص123.

قراءة نصر أبو زيد، وهي قراءة تتسم بالعمق والجدة، والثراء والتماسك، والخطورة في الوقت نفسه، فهو لا يفرّق بين النص البشري والنص القرآني، فهما عنده متساويان من حيث قوانين التكون والبناء، وإنتاج الدلالة؛ "النص القرآني يستمد مرجعيته من اللغة، وإذا انتقلنا إلى الثقافة قلنا: إن هذا النص منتج ثقافي"، منتج ثقافي باعتباره محكومًا بالقوانين الداخلية البنيوية والدلالية للثقافة التي ينتمي إليها؛ "ليست النصوص الدينية نصوصًا مفارقة لبنْية الثقافة التي تشكَّلت في إطارها بأي حال من الأحوال والمصدر الإلهي لتلك النصوص، لا يلغي إطلاقًا حقيقة كونها نصوصًا لغوية بكل ما تَعنيه اللغة من ارتباط بالزمان والمكان التاريخي والاجتماعي" ، وهو في الوقت الذي يرى أن مصدرها إلهي، إلا أنه يرى أنها بخضوعها لقوانين الثقافة الإنسانية، فهي قد تأنْسنت من هذه الحيثية؛ "إن النصوص – دينية كانت أم بشرية – محكومة بقوانين ثابتة، والمصدر الإلهي لا يخرجها عن هذه القوانين؛ لأنها تأنْسَنت منذ تجسَّدت في التاريخ واللغة، وتوجَّهت بمنطوقها ومدلولها إلى البشر في واقع تاريخي محدَّد، إنها محكومة بجدلية الثبات والتغير، فالنصوص ثابتة في المنطوق، متحركة متغيرة في المفهوم، وفي مقابل النصوص تقف القراءة محكومة أيضًا بجدلية الإخفاء والكشف" [1]

أهم مراجع الورقة البحثية:

الكتب:

– "تأصيل النص لدى لوسيان غولدمان"؛ محمد نديم، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط (1)، 1997م.

– "الخطاب الفلسفي المعاصر من العام إلى الأعم"؛ السيد محمد، دار قباء – القاهرة – ط (1)، 2000م.

– "الخطاب الغربي المعاصر – قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة"؛ فادي إسماعيل، تاريخ النشر بدون.

– "ظاهرة التأويل الحديثة في الفكر العربي المعاصر – دراسة نقدية إسلامية"، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، ط (1)، 1431هـ.

[1] "مدخل إلى (الهرمينوطيقا) نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر"؛ د.عادل مصطفى، دار النهضة، لبنان، ط (1)، 1424هـ ص67-69.

– "في قراءة النص الديني"؛ عبدالمجيد الشرفي، كمال عمران، المنصف بن عبدالجليل، الباجي القمرتي، داد القاضي، الدار التونسية للنشر، ط (2)، 1990م.

– فلسفة التوفيق بين الثقافتين العربية الإسلامية والغربية، عالم الكتب الحديث – الأردن، ط (1)، 2006م.

– "الفكر العربي الحديث والمعاصر" ؛ ت: سليمان ربضي، دائرة الفلسفة والدراسات الثقافية، فلسطسن، بير زيت، 2000م.

– القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير؛ د.محمد كالو، دار اليمان، سوريا، ط (1)، 1430هـ.

– قراءة علمية للقراءات المعاصرة؛ د.شوقي أبو خليل، دار الفكر، سوريا، ط (1) 1411هـ.

– قراءات في الفلسفة العربية المعاصرة؛ كمال عبداللطيف، دار الطليعة، بيروت، ط (1) 1994م.

– "مدخل إلى (الهرمينوطيقا) نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر"؛ د.عادل مصطفى، دار النهضة، لبنان، ط (1)، 1424هـ.

– "المناحي الجديدة للفكر الفلسفي المعاصر"؛ سالم يفوت، دار الطليعة، بيروت، ط (1)، 1999م.

– "نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي"؛ محمد عابد الجابري، المركز الثقافي العربي، ط (6)، 1993م.

– نظرية النص؛ ترجمة محمد خير البقاعي، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد (3) 1988م.

– نظرية التأويل، النادي الأدبي الثقافي بجدة، السعودية، ط (1) 1426هـ/ 2000 م.

– "النص الديني والتراث الإسلامي – قراءة نقدية"، دار الهادي، بيروت، 2004م.